DEUİFD XLVIII/ 2018, ss. 239-267.

التَّضاد في شعر لسان الدين بن الخطيب

Ousama EKHTIAR*
Eyass ALRASHED**

ملخص

تبحث هذه الدراسةُ في أسلوب التَّضاد في شعر لسان الدين بن الخطيب، الرجلُ الذي كانت له حظوةٌ في حياته، واهتم به النُّقادُ والبلاغيون بوصفه علامةً مهمة على تطور ونضجِ الأدبِ في الأندلس، وتحاولُ الدراسة رصدَ التَّضاد في شعره بوصفه أسلوبًا فنيّاً كان له أثرٌ بالغٌ في صناعة البنيةِ الإيقاعية في النص؛ إضافةً إلى كونِه تعبيراً عن المستوى الفكريّ المتداولِ في عصر الرجل، وتحاولُ تبيانَ طبيعة هذا الاستخدام الذي لم يكن قصدياً، وإنَّما نابعٌ من طبيعة الحياة التي تقوم أساساً على فكرة الثّنائيات الضّديّة؛ لأنَّ التّضاد يكشفُ، في الشّعر عامةً، خصائصَ النزعة الأدبية والمنظومةِ اللغوية، وسمات الجمال البلاغية في النص.

الكلمات المفتاحية: الأدب الأندلسي، لسان الدين بن الخطيب، النقد، التضاد.

LİSÂNÜDDİN İBNÜ'L-HATÎB'İN ŞİİRİNDE ZITLIK (TEZÂDD) SANATI

ÖZ

Bu çalışma**,** yaşamı boyunca itibar sahibi olan ve Endülüs'te edebiyatın gelişmesi ve olgunlaşması noktasında belagat âlimleri ve eleştirmenlerce önemli bir gösterge olarak değer verilen Lisânüddin İbnü'l-Hatîb'in şiirinde zıtlık (tezâdd) sanatını ele almaktadır.

Çalışmamız şiirlerindeki zıtlık sanatını, şairin döneminde kullanılan fikrî düzeyin bir ifadesi olarak almanın yanı sıra metindeki ritmik dizim yapısının oluşumunda önemli bir etkisi olan bir sanat üslûbu olarak da ele almaktadır. Çalışmamız, kasdî olmayan, ikili zıtlık düşüncesi üzerine kurulu hayatın doğallığından türemiş

* Prof. Dr., Bingöl Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Arap Dili ve Belâgatı Anabilimdalı Öğretim Üyesi, ousama967@gmail.com, ORCID ID orcid.org/0000-0002-8511-0545.

** Dil Bilimci, sorya80@hotmail.com, ORCID ID orcid.org/0000-0003-2016-8364.

Makalenin Hakemlere Gönderiliş Tarihi : 08/10/2018
Makalenin Hakemlerden Geliş Tarihi : 14/11/2018

olan bu tür zıt kullanımların yapısını açıklamaya çalışacaktır. Çünkü zıtlık genel olarak şiirlerde edebî akımların ve dil sistemlerinin özellikleri ile metindeki belâgî estetik göstergeleri ortaya çıkarmaktadır.
Anahtar Kelimeler: Endülüs Edebiyatı, Lisânüddin İbnü'l-Hatîb, Eleştiri, Zıtlık.

THE CONTRAST STYLE IN THE POETRY OF LESAN AL DEEN BEN AL KHATEEB

ABSTRACT

This research is about the contrast style in the poetry of Lesan Al deen Ben Al Khateeb; the poet who was lucky in his life as critics and rhetorical persons interested in his experience as a mark of maturity of Andalusian literature. This study tries to follow the contrast in his poetry as an artistic method which has great impact on the rhyming words in the context; in addition to the fact of being a different intellectual level, according to that age. This research tries to reveal the usage of contrast style undeliberatly but stems from the nature of life based mainly on the idea of binary opposition. In general, the contrast style shows the literary language system, and features of rhetorical beauty in the text.
Keywords: Andalusian Literature, Lesan al Deen, Literary Criticism Contrasts.

لسان الدين بن الخطيب

لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله السَّلْماني[1]، و(السَّلْماني) نسبة إلى (سلْمان)، وهو حيٌّ من مُراد من عرب اليمن القحطانية، وهو عالمٌ، كاتبٌ، شاعرٌ، مترسِّلٌ، سياسيٌّ، وُلد في مدينة لوشا؛

[1] حول ترجمة ابن الخطيب انظر: ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط2، 1973، 4/ 437. والمقَّري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1988، 5/ ص. ص 189،605. والمراكشي، العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط، 1976، 444/4. وابن خلدون، عبد الرحمن المقدمة، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ط.1، 1999، ص600. وبالنثيا، آنخل جنثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين

من أعمال غرناطة عام 713هـ، لُقِّب بـ"ذي الوزارتين"؛ لجمْعهِ بين مهنةِ الوزارةِ ومهنةِ الكتابة، وقد صنَّف مؤلفاتٍ نفيسةً. كان والد ابن الخطيب ذا حُظْوة بارزة لدى سلطان غرناطة، ولما توفي والدُه، دُعي لشغل منصبه، وهكذا تولى أمانة السرّ لأستاذه ابن الجياب وزير السلطان أبي الحجاج يوسف، وفي سنة 755هـ قُتل السلطان أبو الحجاج، فخلفَه ابنُه الغني بالله، ثمَّ خُلِع السُّلطان الغني بالله من منصبه ليتولاّه أخوه، وقد خُلع معه وزيرُه ابنُ الخطيب، وبذلك بدأت محنةُ الرجل؛ إذ صودرت، أملاكُه، ثم تدخل السُّلطان المريني أبو سالم لدى سلطان غرناطة الجديد طالباً إليه السَّماحَ بانتقال الملكِ المخلوعِ ووزيره ابن الخطيب إلى فاس. عاش ابنُ الخطيب ردحاً من الزمن في كنَف سلطانِ المغرب الأقصى في ثغر سلا، ثم ساعد المغاربةُ السلطان الغرناطي المخلوع الغني بالله على استرداد عرشه من جديد؛ فعاد معه ابن الخطيب.

كثر خُصوم ابن الخطيب في الأندلس، وعلى رأسهم تلميذه ابن زمرك، فبدأ مركزُه المتميز يضعف يوماً بعد يومٍ؛ فقرَّر ترْك السياسةَ ومتاعبها ومسؤولياتها، وقصد تلمسان حيث بلاطُ عبد العزيز المريني، وواصل خصومُ ابن الخطيب تلفيقَ الاتهام ضده، فرمَوْه بالإلحاد في بعض ما كتب؛ فأحرِقت كتبُه في ساحة غرناطة، وأرسل السلطانُ الأندلسي إلى نظيره المغربي كتاباً يطلبُ منه فيه تنفيذ حُكم الشارع في الوزير الذي رُميَ بالزندقة بهتاناً، فما كان من ملك المغرب إلا أنْ ردَّ على طلبه بالنفي بل زاد من تقريب ابن الخطيب.

لما توفي السلطان عبد العزيز، خلَفَه على العرش ولدُه الطفل السعيد، وغادر بلاط أبيه بتلمسان باتجاه فاس، ومعه ابنُ الخطيبِ الذي قوي نفوذه في بلاد المغرب، وساءت العلاقةُ بين بلاطي فاس وغرناطة، ثم خُلعَ الملكُ الطفل السعيد، ونُصب الأميرُ أحمد بن السلطان أبي سالم مكانَه عام 776هـ، وبنجاح الانقلاب بادر السلطان الجديد بإلقاء القبض على ابن الخطيب، وحُوكِم، ثم قتل خنقاً،

مؤنس، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط1، 2011، ص292. والوراكلي، حسن: لسان الدين بن الخطيب في آثار الدارسين (دراسة وبيبليوجرافيا)، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع.2، س.2، 1987، ص113

ثم أخرجت جثتُه في اليوم التالي، وأضرمت فيها النيران، ثم أعيدت الجثة إلى القبر قبل أن تحترق كلها، وقد وقعت هذه المأساة سنة 776 للهجرة.

التضاد – مهاد نظري

التَّضاد في معناه الاصطلاحي: «أن يجمع بين المتضادين مع مراعاة التقابل»[2]، والضِّدَّان عند أبي هلال العسكري: «هما اللذان ينتفي أحدهما عند وجود صاحبه إذا كان وجود هذا على الوجه الذي يوجد عليه ذلك، كالسواد والبياض»[3]. ولم يسلم هذا المصطلح مثل بقية مصطلحات البلاغة العربية من اختلاف التسمية وتشقيق المعنى[4]، فهو أيضاً «التطبيق والتكافؤ والطباق والمطابقة»[5]، ومنهم من «عدّ التَّضاد نوعاً من أنواع الاشتراك اللفظيّ».[6] وصار عند آخرين بمعنى المقابلة: «وهي أن يُؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثمَّ بما يقابلها على الترتيب».[7]

---

2 الجرجاني، الشريف علي بن محمد، التعريفات، تحقيق : محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، د. ط، د. ت، ص 55

3 العسكري، أبو هلال، الفروق اللغوية، تحقيق: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، د.ط، د. ت، ص164

4 سلطان، منير، البديع تأصيل وتجديد، منشأة المعارف، الإسكندرية،ط1، 1986م، ص14.

5 مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبوعات المجمع العلمي العراقي،ط1، 1987، 252/2؛ وقرقز مصطفى واختيار أسامة، المقتضب في البلاغة العربية، دار رغبة، إسطنبول، 2017، ص 119.

6 السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، المزهر في علوم اللغة، تحقيق: محمد أحمد جاد الله المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، القاهرة، ط1، ،1958، 1/ 387.

7 القزويني، الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1985، ص353

وانظر أيضاً حول هذا المصطلح :العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل، مطبعة عيسى البابي الحلبي،ط1، 1952،ص 307، وابن المعتز، عبد الله، البديع، اعتنى بنشره والتعليق عليه وإعداد فهارسه: المستشرق إغناطيوس كراتشوفسكي، دار الحكمة، دمشق، د. ط د.ت : 36 .

أشاد البلاغيُّون والنُّقادُ بالتَّضاد وأثره العضوي في بناء شاعريّةِ النَّص، «وإنها لصنعةٌ تستدعي جودةَ القريحةِ والحذق الذي يلطُف ويدُقُّ في أن يجمعَ أعناقَ المتنافراتِ المتباينات في رِبْقَةٍ ويعقدَ بين الأجنبياتِ معاقدَ نسبٍ وشبكة»[8]. وقد عُلم أن علم البديع له تاريخ تدرّج فيه، وصار ذا نهج وقواعد بين العلوم البلاغية، فأول من تكلم عليه الجاحظ، ثم تطوّر عند ابن المعتز حتى جعله مثالا في هذا الطريق، وقد ألّف كتابه البديع مما استنبطه من كتاب الجاحظ "البيان والتبيين"[9]. وهذا السِّرُّ أدركه القدماءُ، واهتم به المحدثون؛ لأنَّ « هذه البنية أكثر البنى انتشارًا في الخطاب اللغوي عمومًا والأدبي خصوصًا »[10]

عني غريماس بدراسة الثّنائيات الضِّدية وأثرها في بناء المعنى ؛ إذ «صنَّف التقابلاتِ إلى عدّة أنواع، أولاً: تقابلات محوريَّة لا تقبل وسطاً "زوج / زوجة"، ثانياً: تقابلات مراتبيّة "كبير / وسط/ صغير"، ثالثًا: تقابلات متناقضة: "متزوج/ عزب"، رابعًا: تقابلات متضادة "صعد/ نزل"، خامسًا تقابلات تبادلية "اشترى / باع"» [(11)] ولم يكن التَّضاد رهينَ التعريفِ اللغويّ أو الاصطلاحي، ولم يبقَ مستلباً لصالح الدراسات البلاغيّة والنقديّة بل امتدت إليه يدُ المشتغلين في الفلسفة، مثل الجاحظ البلاغي، الذي كان من رؤوس المعتزلة، وقد تحدث الجاحظُ في كتاب الحيوان عن الضِّد والخلاف والوفاق، فقال من جملةِ كلامٍ طويل :« الألوانُ كلُّها متضادةٌ، وكذلك الطُّعوم، وكذلك الأراييح، وكذلك الأصواتُ، وكذلك الملامس؛ من الحرارة والبرودة واليَبَس والرطوبةِ والرخاوة والصَّلابة والملاسة والخشونة، وهذه جميعُ الملامس، وزعموا أنَّ التَّضادَ إنَّما يقعُ بين نصيب الحاسةِ الواحدة فقط... ولا يكون الطَّعم

---

8 الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق : محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ص127

9 الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: فوزي عطفي، دار صعب، بيروت، 1968، ص 584
Kırkız, Mustafa, *Arap Belâgati İlminin Tarihi ve Gelişim Aşamaları*, Beyan yay, 2014, s. 124-12

10 عبد المطلب، محمد، البلاغة العربية قراءة أخرى، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، ط1، 1997، ص:354

11 مفتاح، محمد، 1985 . تحليل الخطاب الشعريّ استراتيجية التناص، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ط1، ص 239

ضدَّ اللون، ولا اللون ضدَّ الطَّعم،..لأنَّه ليس من جنسه»[12] وعدَّت الفلسفةُ التَّضاد سمة الوجود، لذلك فهو أساس التَّقابل في اللغة، وهذا ما ذهب إليه الدكتور عبد الرحمن بدوي: «الوجود في مشاقة مع ذاته.. التناقض جوهره، والتغيير قانونه، الذي يجري عليه في تحقّقه»[13] إذاً حضر هذا المصطلحُ بين يدي الفلاسفةِ، وفي الوقت نفسه كان النُّقادُ والبلاغيون يحاولون تشكيلَه ووضع وصفٍ له معرفة مدى قدرته على صنع أدبيَّة النص، فكان هذان الاهتمامان؛ أقصد البلاغي/ النقدي والفلسفي فرصةً لنحت هذا المصطلحِ وإدراك خباياه وقدرته على تفجير الأدبيَّة في نص ما أو الاحتفاظ بها في البنى العميقة للخطاب الأدبي[14]

لذلك أصبحت الدراسات النَّقديَّةُ قادرةً على فهمِ قدرة الأضداد على تصعيد الحركة الداخليَّة، وإنتاج الدلالات المطلقة؛ لأن التَّضاد يعد نوعًا من العلاقة التلازمية بين المعاني، وربما كانت تلك العلاقةُ أقرب إلى الذهن من أيّ علاقة أخرى؛ فبمجرد ذكر معنى من المعاني يستدعي المعنى المضاد إلى الذهن، ولا سيما ما بين الألوان؛ فذكر البياض يستحضر في الذهن السواد[15]، وذكرُ كُليب يستدعي جَسَّاسًا،

---

12 الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق : عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ط2، القاهرة، مصر، 58/5

13 بدوي، عبد الرحمن، الزمن الوجودي، النهضة المصرية، ط2، 1955، ص 24

14 حول هذا الموضوع انظر: كومفورث، موريس، مدخل إلى المادية الجدلية، ترجمة : محمد مستجير مصطفى، دار الفارابي، بيروت، لبنان،ط5، 2015، ص101، و كوزنتيسوف، بصدد مؤلف أنجلز؛ لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، ترجمة إلياس شاهين، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط2، 2016، ص45، و الزين، محمد شوقي، التِّقاف في الأزمنة العجاف ؛فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013،ص222، والنصراوي، ناديا أحمد، فلسفة فيورباخ بين المادية والإنسانية، دار الرافدين، بيروت، لبنان، ط1، 2016، ص:74، وراغب، نبيل، علم النقد السياسي، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، مصر، ط1، 2014،ص: 65، والملاح، هاشم يحيى، المفصل في تاريخ الفلسفة، دراسة تحليلية في فلسفة التاريخ التأملية والنقدية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط1، 2007، ص 337، وأحمد، سامي شهاب، النقد الأدبي الحديث؛ قضايا واتجاهات، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د.ط، 2012، ص25

15 داود، محمد، العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب، القاهرة، مصر،ط1، 2001، ص: 193

وذِكْرُ الإيمانِ يستدعي الكفر، وذكر النهوض يستدعي السقوط ، وذكر العبوديَّة يستدعي الحريَّة، وهكذا دواليك.

يساعد التَّضاد على عكس مواقف الذات وأفعالها المتناقضة، وحالاتها العقلية، ويمثّل التَّضاد في الوقت نفسه العلاقات الإنسانية المتفاعلة، التي تنتجها حركة العلاقات الداخلية في النصّ، كما يتحوّل الفعل «بقوته البنائيَّة إلى مولِّد للطاقة، التي تمد عناصر النَّص بدفعاتٍ متوالية، وتشحنها بالقوّة الحركيَّة والتوالدية بدءًا من الإيقاع، وانتهاء بالتوليد الغنيّ للعلاقات الداخليَّة في النَّص» [16] لذلك فإن التَّضاد يعد عنصرًا فاعلاً في تكوين الخلق الشعري، وإنتاج الدلالة والخروج بالنص إلى مستوى لغة الأدب، ومن ثم فإنَّه يجعل النَّص حافلاً بالشعرية؛ التي يتخذها الناقد هدفاً لعمله أثناء ولوجه عالم النَّص، ليتلمس مفاتيحه دراسة وتحليلاً. هذا لا يعني أنَّ هذا العنصر يصنعُ أدبيَّة النَّص أو يفرض منطقَه دونَ النَّظر إلى العوامل الأخرى كالسِّياق وتشعبِر اللغة؛ إضافة إلى المكونات البنائيَّة الأخرى. إنه كالجملة الموسيقية؛ التي تشّكل مع غيرها المقطوعةَ الموسيقيَّة دون التَّفريط بأيّ عنصرٍ منها: «إنّ قيمة التَّضاد الأسلوبية تكمنُ في نظامِ العلاقاتِ، الذي يقيمُهُ بين العنصرين المتقابلين وعلى هذا فلن يكون له أيّ تأثيرٍ ما لم يتداعَ في توالٍ لغويّ، وبعبارة أخرى: فإنّ عملياتِ التَّضاد الأسلوبية تخلق بنيةً، مثلها في ذلك مثل بقية التقابلات المثمرة في اللغة» [17] هذا التداعي اللغوي يجب أن يكونَ مرسوماً بقصديةٍ محكمةٍ ، تُراعي السُّننَ الثقافيةَ في زمنِ المبدع لأن هذه الثُّنائيّة تنبع «من تمايز ظواهر معينةٍ في جسد النَّص، ومن ثم تكرارُها عددًا من المرات، ثم انحلال هذه الظواهر واختفاؤها، بهذه الصفة يكتسب النص طبيعته الجدلية» [18].

---

16 درويش، أسيمة، مسار التحولات، قراءة في شعر أدونيس، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص: 239

17 فضل، صلاح: علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، كتاب النادي الأدبي، جدّة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1988، ص: 256

18 أبو ديب، كمال، جدلية الخفاء والتجلي؛ دراسة بنيوية في الشعر، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ط1، 1981، ص: 109

التضاد في شعره

نحاول في الصفحات القادمة تحليل أسلوب التضاد في شعر الرجل لتبيان الإيقاع الذي يحدثه التضاد:

1_ الصراع الإسلامي الفرنجي

إن الزمن الممتد بين (770-750هـ)، يعد فترةً فارقةً في تاريخ الأندلسيين؛ حققوا فيها انتصاراتٍ مجلجلة، ففيها تم الانتصارُ على النصارى المحاصرين في جبل طارق، وفتحوا مدينةَ (جيّان) و(أبدة) و(أطريرة) و(برغة) و(رُندة)، واستولوا على حصن (قنيط) و(إشبونة) و(أشر)، وجملة من القرى الواقعة على أطراف مدينة (الكرس).

لذلك يعد المؤرخون عهد السلطانين أبي الحجاج يوسف وولده محمد الغني بالله أزهى العهودِ في تاريخ الدولة النصرية؛ هذا العهد الذي كانت انتصاراتُه سبباً في إطالة أمدِ الوجودِ الإسلامي في الأندلس .[19] وقد تزامن ميلاد لسان الدين بن الخطيب على صعيد الحياة السياسية في غرناطة الأندلسية مع مرحلة تجدُّدِ نشوب الصراع بين الإسلام والمسيحية، وعلى الأخص في عهد سلطان غرناطة أبي الوليد إسماعيل (713. 725هـ)[20] الذي نهض بعبء الجهاد ضد القشتاليين، وقد انتصر عليهم في معارك ظافرة، منها معارك سنة (716)[21] كما استطاع رد هجومهم على عاصمته غرناطة في سنة (718) لذلك يمكن القول: إن جُلّ سِنيّ أبي الحجاج في السلطة عرفت هي الأخرى جهوداً جهادية

---

19 الزباخ، مصطفى، بنية الصراع الحضاري الأندلسي من خلال رسائل ابن الخطيب، قراءة في المكونات والدلالات، مجلة كلية الآداب بتطوان، جامعة سيدي محمد بن عبدالله، عدد خاص بندوة ابن الخطيب، السنة الثانية، عدد 2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1987.ص: 391.

20 ابن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، صححه ووضع فهارسه: محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة مصر،ط1، 1347 □1 ص 78.

21 مؤنس، حسين، أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، لمؤلف مجهول، الزهراء للإعلام، القاهرة، مصر،ط1، 1991، ص50.

مركزة في تسيير معارك الجهاد ضد القشتاليين دفاعاً وغزواً، فقد كثرت هجمات أولئك الصليبيين ضمن حملاتهم المسماة حروب الاسترداد لديار الإسلام تحت قيادة الفونسو الحادي عشر،[22]

وقد اضطر المسلمون في العدوتين المغربية والأندلسية إلى مواجهة هذه الأطماع، وإلى خوض معارك متعددة للجهاد؛ انتصروا في بعضها كما ذكرنا سابقاً و انكسروا في بعضها الآخر، مثل معركة (سلادو) التي ضارعَت محنتها موقعة العقاب [23].

فإذا كانت الحالُ على ما بسطنا فإنَّ لسانَ الدين سيكونُ من أوائل المتأثرين أو المنغمسين فيها؛ لأنَّه وزيرٌ مقرب من السلطان، وكاتب وشاعر الدولة، هذا الشَّاعر والكاتب، الذي لم يكن فقط صدى لسياسات الدولةِ؛ ومعبراً عنها بل كان جزءًا من صناعة القرار، هذا القرارُ الذي أمدَّ بوجود الأندلسيين مئة وخمسين عامًا في الأندلس.

وبناء على هذه الحالِ غيرِ المستقرةِ سياسيًا فإنَّ الأدبَ يتحوّلُ إلى معادلٍ موضوعي يُعبَّر عنه، وهنا نرصدُ شيوعَ التَّضاد؛ لأنَّ وجوده يأخذ شكلاً حادًا؛ فثمة تضادٌ جغرافي؛ أرض المسلمين وأرض الفرنجة، وثمة تضادٌ عقدي وتضاد سياسي، فالفرنجة يخوضون حرب الاسترداد؛ ليعيدوا أرضَهم التي سلبها المسلمون منذ القرن الهجري الأول، والمسلمون وهذا الوطنُ الأندلسي وطنهم؛ فقد دخلوه فاتحين، أقاموا فيه دولة العدالة والمساوة، ولم يبخسوا أهلَ البلاد حقَّهم، بل كانوا متساوين، وبنوا حضارةً يشيرُ التاريخُ إليها بالبنان.

هذا التَّضاد في الواقع سيظهر في الأدب بالضرورة، سننظر في هذه النماذج الشعرية من عدة قصائد لابن الخطيب ونحللها :

---

22 ابن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، ص 108. وانظر: ابن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،، القاهرة مصر، ط1، 1981، 1 /143، 207، 223، 237، 299، 367 / 2: 39، 58.

23 عنان، محمد عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1997 ص: 117، 118.

جيشٌ يرى تعبَ المفاوزِ راحةً والسهل صعباً والبعيدَ قريبا [24]

ويقول في موضع آخر :

فلِلهِ ما أعزْزتَ من ملةِ الهُدى ولله ما أذْلَلْتَ من ملَّةِ الكفر[25]

وقال في هلاك طاغية الروم:

وفيتَ وخانَ العهدَ في غيرِ طائلٍ وصدَّقَ أطماعَ الظنون الكواذبِ[26]

قلْ للزمان وقد تبسَّم ضاحكاً من بعدِ طولِ تجهُّمٍ وقُطوبِ [27]

وأنشد السلطان:

ودجا ظلامُ الكفرِ في آفاقِهم أوليسَ صُبحكَ منهم بقريبِ؟[28]

عَجِبَتْ سُيُوفُهم لشدَّةِ بأسهم فتبسَّمَت والجوُّ في تقطيبِ[29]

وفي قول آخر :

وأتاحَ أندلساً بحدِّ حسامِه قسراً فأحيا الأرضَ بعدَ مماتِها[30]

---

24 ابن الخطيب، لسان الدين، ديوانه، تحقيق: محمد مفتاح، دار الثقافة، المغرب، ط1، 1989، 103/1

25 المصدر نفسه،1/ 376

26 المصدر نفسه،1/ 113

27 المصدر نفسه، 1/ 130

28 المصدر نفسه، 1/ 131

29 المصدر نفسه، 130/1

وقال في مدح أبي الحجاج :

إذا ذكر الأملاك من مثل يوسف سالم في ذات الهوى ويحارب[31]

وأنشد السلطان على إثر وقيعة كبيرة أوقعها جيشه بالروم[32]

وأصبحَ دينُ الله قد عزَّ جارُه بموقِعِهِ والكفرُ هِيضَ جناحُهُ

الثنائيات الضدية التي وردت في الأبيات هي:

السهل / الصعب

ملة الهدى / ملة الكفر

وفيت / خان

صدق / الكواذب

تبسم / تجهم

ضاحكا / قطوب

ظلام / صبح

أحيا/ مماتها

سالم / يحارب

دين الله/ الكفر

---

30 المصدر نفسه، 1/ 171

31 المصدر نفسه،1/ 121

32 المصدر نفسه، 1/ 219

هذا الأبياتُ من قصائدَ مختلفةٍ في ديوان الرجل، وقيلت في أزمنة متباعدةٍ، ولكنْ يجمعُها سياقٌ واحدٌ، هو سياقُ الحربِ بين المسلمين والنصارى، هذه الحربُ؛ التي أحدثت قلقاً وجودياً بالنسبة للمسلمين وخصوصا أنهم كانوا يشاهدون الحواضرَ الإسلاميةَ تتساقط أمامهم، ولا تعودُ إلى ملك المسلمين حتى حُصرَ القوم في غرناطة، هذا القلقُ الوجودي ينعكسُ في إيقاع النص، الذي يتأسسُ في بنيته الداخلية على هذا الصراع.

إن التنافر أو التَّضادَّ في هذه الأبيات وسيلةٌ للوصول إلى عمق صورةِ الواقعِ، التي يشاركُ الإبداعُ في اكتشافها، ويشاركُ في رسم النقيضِ لها في آنٍ معاً، ومن ثم فإنَّ العزفَ على إيقاع التَّضاد يمنحُ النصَّ طاقةً جماليةً على صعيد البنية الشعريَّة بكل مفرداتها، بل بكل مكوناتها؛ لأنَّ المتحولات اللفظية الضديَّة تخلقُ دلالةً جديدةً لها إيقاعُها النفسي العميق، وهذا ما ينعكسُ على حركيّة النص وتساوقه الموسيقي مما يضمن لها الإثارةَ للمتلقي، ولا سيما عندما يرتبط المتحول الصوتي بالمتحول الدلالي أو المتحول النفسي الذي يتبع حركةَ الصوت ومساره النغمي.

إن هذه النصوص جميعاً التي اقتُبست من ديوان الشاعر، يحركُ بنيتها الداخلية التَّضاد، وهو من يخلقُ أداءَها الدلالي، وهو من يجعلها البنيةَ العميقةَ لإيقاع النص الداخلي، ومن ثَمَّ زرع هذا الإيقاع في روع المتلقي، إننا نلمس الحركة الصوتية التي يولدها التَّضاد، وهذه الحركةُ تخلقُ توتراً إيقاعياً يرتدُّ صداه إلى بؤرة الدلالة محققًا مفارقةً صوتيةً تدللُ على جانبين شعوريين متضاديين أو محتدمين يتنازعان نبضه الداخلي؛ فالمتلقي سيكون له موقفٌ نفسيٌّ، عندما يذكر الشاعرُ ملةَ الهدى، ثم يردفُها بملة الكفر، والشيء نفسُه يقال، على وفيت وخان، وهذا التركيز على هذه المتناقضات هو من يشحن الحالةَ النفسيةَ لجمهور الشاعر، الذي يجب أن يكونَ إيقاعُه النفسيُّ مجلجلاً بما يتناسبُ مع معركة الوجود. إن الشعريَّة تنشأ من البنية الصوتية للنسيج اللغوي الذي تتشكَّل منه القصيدةُ، وبقدر التنوعِ في طرائق التشكيل الصوتي بقدر ما تنمو القصيدةُ وتسمو بحركتها الصوتية داخلَ النسق وتزدادُ وتيرةُ إيقاعها الصوتي، الذي يتناغم مع مضمونها الفكري أو الدلالي الذي تشكله.

2_ الرثاء

يقول لسان الدين في مطلع قصيدة: "وقلت وقد زرت قبر المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عباد أمير الأندلس رحمة الله عليه بخارج باب أغمات في عام واحد وستين وسبعمئة"[33] :

كرُمت حيَّاً ومَيْتاً واشتهرت عُلاً فأنت سلطانُ أحياءٍ وأموات[34]

احتفى ابن الخطيب بهذه القصيدة، إذ قدَّم لها، وبسط في شرح الواقعة؛ التي استدعت النظمَ، في حين كنا نراه يُقدِّمُ بكلمتين في قصائد كثيرة في مدح السلطان[35]، وهذا الاحتفاءُ له دلالتُه؛ فالرجل خُلعَ من المُلْك، كما خُلعَ سيدُه السلطان في الانقلاب الأول، الذي حدث في غرناطة، وصار غريباً في أغمات أعزلَ من السلطة والجاه، وهذا أول التحريض على هذا النص.

ومن الملاحظات التي نسجلها هنا أنَّ المعتمدَ بن عباد لم يكن من السلاطين العظام، الذين مروا في تاريخ الأندلس؛ فقد كان الرجل في زمن ملوك الطوائف، هذا العهدُ الذي صارت فيه سلطة المسلمين رقيقةً، ووهن حكمُهم، وصار تقسيمُ البلاد وتآكلُها أمراً واقعاً. لقد عاش ابنُ عباد في حقبة ملوك الطوائف، و هو اسمٌ دقيقٌ في مسماه، دالّ على ما كانت تعانيه البلاد من تمزُّق وانحلال، فلم يكن يربط بين ملوك دولِ الطوائف رباط المودة، أو وشائج المصلحة، وإنما نفخَ الشيطان في روعهم؛ فهم في شقاق مستمر، يقاتل بعضهم بعضاً، وينتزعُ القويُّ منهم ما في يدِ الضعيف، يستنصرون بالنصارى، ويحالفونهم ضد بعضهم.

لم يكن المعتمدُ بن عباد يمثل زمنَ النصر والعزة والسؤدد، ولكنه كان يمثلُ الحالةَ الحضاريةَ للأندلس، لكنَّ ابن الخطيب كوَّنَ صورةً نمطية عن المعتمد، الذي كان شاباً فتياً حين آلت إليه السلطة وشاعراً مجيداً، وأميراً جواداً، يحبُّ الأدبَ ومسامرة أهله؛ وقد اجتمعت في بلاطه نجومٌ ساطعة من أرباب

---

33 ابن الخطيب، لسان الدين، ديوانه،1/ 181

34 ابن الخطيب، ديوانه، 1/ 182

35 انظر المصدر نفسه، 204/1، 1/ 219، 457/2، 469/2

ونوابغ القصيد؛ كأبي بكر بن عمار، وابن زيدون، وابن اللبانة، وابن حمديس الصقلي، وكانت إشبيلية حاضرة دولته آية في الروعة والبهاء، تزدان بقصور بني عباد وقواده وكبار رجال دولته[36].

كان إيقاع حياة ابن الخطيب قبل حادثة الانقلاب في غرناطة ثابتاً، يتخذ الصعودَ طريقاً؛ فنَجْمُ الرجل لم تعد الفضاءاتُ الغرناطيَّةُ تستوعبُه، لقد صار الشَّاعرَ الأول، والوزيرَ الأول، ولكنَّ هذا الإيقاعَ الحياتي هشَّمَه الانقلابُ، الذي قذف بالرجل إلى العدوة المغربية؛ ليجد نفسَه أمامَ قبر المعتمد بن عباد، الذي يشبه لسانَ الدين في تجربته، غير أنَّ المعتمد كان ملكاً، ولسان الدين وزيراً، ولكنَّ الرجلين مرَّا بالتجربة نفسها، وانتهى بهما الأمرُ إلى المغرب، بعد أن غَرُبت شمسُ السلطة. إنَّ الشاعرَ في هذه القصيدة وفي هذا البيت تحديداً يخاطبُ ابن عباد الملك، الذي سُلِبَ مُلْكُه، ولكنَّه في الحقيقة يتخذُ ابنَ عباد قناعاً ليتكلم عن نفسه من خلاله، ويكلِّمَ نفسَه؛ لأنَّ التجربةَ متطابقة تماماً. ونجد أن الشاعر يصنعُ شاعريته بأسلوب التَّضاد، فقد أعاد فكرةَ الحياة مرتين في الشطر الأول وفي الشطر الثاني؛ لأنَّ التَّضاد هو المكونُ الأساسي لإنتاج بنيةِ النص ودلالته؛ فالتَّضاد هنا تركيب بنائي ينهض على طرفين متنافرين على مستوى السطح، متضافرين على مستوى العمق لإنتاج دلالة شعرية، وقوة تصل بالنص الشعري إلى قمة سحره وتمايزه، عن طريق حركة التفاعلات بين طرفي التَّضاد من جهة وباقي عناصرِ النَّص من جهة أخرى.

إن حركة النص تنوس بين مستويين إيقاعيين للحياة، إيقاعِ الوجودِ وإيقاعِ الفناء، مع حرصٍ بالغٍ لمغالبة الفناء، وهذا ما أشار إليه جان كوهين؛ فهو يرى أن الثنائيات الضدية تنشأ من شعورين

---

36 انظر: وات، مونتغمري، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، مع فصل في الأدب بقلم بيير كايا، ترجمة : محمد رضا المصري، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، ط2، بيروت، 1998، ص: 123

مختلفين يوقظان الإحساسَ، وواحدٌ من هذين الشعورين فقط هو الذي يستثمرُ نظامَ الإدراكِ في الوعي، والثاني يظلُّ في اللاوعي[37]

ومما يعزز هذه القناعةَ الأخيرةَ البيتان الآتيان

خُذْ من حياتِكَ للممات الآتي وبَــدارِ مادامَ الزَّمانُ مُواتي

لا تغترزْ فهو السَّــرابُ بقِيعةٍ قد خُودعَ الماضي بهِ والآتي[38]

الشَّاعرُ هنا قد أيس من الحياة وصارت بالنسبة له محطةً انتهت بعد أن قضى منها كلَّ لُباناته، ولكنَّه يعيدُ تقييم تجربته بعد أن كانت الدنيا أكبرَ همِّه، فقد جرى خلفَ السلطة والمال والمجد وكان له ذلك، ولكنَّ هذا الشَّغفَ بهذا الفاني، لم يكن أكثرَ من تأميلٍ بحقيقة السراب، هذا التأميل الذي كان ديدنَ الناسِ منذ أحقابٍ منصرمةٍ، ولكنَّهُ ينبِّه هنا على بطلان هذا السعي بعد تجربةٍ مرة. إن هذا التقابلَ بين الضدين في النص هو مرتكزُ شعريته، لأنَّه يجعلُ المتلقي يقع تحت سطوة المقارنةِ بين الزمنين، واستحقاق كل زمن، فيُجري المتأملُ مقارنةً ببطء؛ لأنَّها تستوجب التأمل لذلك فرضت إيقاعاً بطيئاً، فالمتلقي يجب أن يمشِّط ذاكرتَه فيما اقترف في الزمن الفيزيائي المعلوم بالنسبة له، زمن العيش، لينتقلَ إلى التأمل في زمنٍ قادمٍ لا يدركُ ماهيته، ولكنَّه يؤمنُ به على الرغم من جهله بتفاصيله؛ لأنَّه لم يعاينه، وهذا الإلحاح على فكرتي الفناء والبقاء في البيتين جعل التَّضاد يتحولُ إلى قيمةٍ أسلوبيةٍ، وقيمتُه "تكمن في نظام العلاقات، الذي يقيمه بين العنصرين المتقابلين، وعلى هذا فلن يكون له أيّ تأثيرٍ ما لم يتداعَ في توالٍ لغوي، وبعبارة أخرى: فإن عمليات التَّضاد الأسلوبية تخلقُ بنية، مثلها في ذلك مثل بقية التقابلات المثمرة في اللغة"[39]

---

37 كوهين، جان، اللغة العليا، ترجمة أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ط1، 1995، ص187

38 ابن الخطيب، ديوانه،1/ 187

39 فضل، صلاح: علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، كتاب النادي الأدبي، جدّة، السعودية، ط1، 1988، ص 256

3_ الغزل

يقول الشاعر:

كُلَّما رُمتُ فيكَ بعضَ سُلوّ رجعَ الشَّوقُ بي عـلى الأدراجِ

أنتَ شمسي فكلَّما غابَ عني فنَهاري مثلُ الظَّلامِ الداجي

يا مريضَ الجفونِ أمرضْتَ قلبي فادَّرِكْني ففي يديكَ علاجي

تخدعُ النَّاسَ بالفتورِ ففيهـــا نُسْكُ بِشْرٍ وسَـطْوَةُ الحجَّاجِ

كيفَ أشكو بعادَ مَنْ هو دانٍ قاتلَ اللهُ شِـــــرَّتِي ولِجاجي

ساعَدتني بعدَ المطالِ الليـــالي واستقامَ الزَّمانُ بعدَ اعْوجاجِ

لا بـد أن نسـجلَ في البدايـة ملاحظـةً سـياقيةً، فقـد مهَّـد الشَّـاعرُ للقصـيدة بقولـه: «قلـتُ في غـرض النَّسيب لمن كلَّفني ذلـك في زمـن الصّبا والله يتجـاوز بفضـله» [40]، ويتناسـلُ مـن هـذه الملاحظـةِ السِّياقية ملاحظاتٌ أخرى، فقد كلَّفه ذلك أحدُهم، والشَّاعرُ يعتذرُ عن هذا الشِّعر طالباً العفوَ من الله، على الرَّغم من أنَّ هذا النسيبَ من المقبول عند كلِّ الشِّعراء والفقهاء على مرِّ العصور؛ فليس فيه فحشٌ، أو تشبيب بالمحبوبة مما يؤذيها أو يشهِّر بأهلها، وإذا قلَّبنا في كلِّ النصِّ فإننا لن نجدَ سوى الصور؛ التي تعاورَ الشعراءُ على ذكرها خلالَ قرونِ الغزل العربي، ولكنْ يبدو أن الشَّاعرَ قد قلبَ ظهرَ المجن للدنيا، وصار يتحرَّى الاستقامةَ والاعتذارَ مما بدرَ منه في أيام الشبيبة.

إذاً، الشَّاعرُ قال هذا النَّص بتكليف من أحدهم، فالنيَّةُ الغزليةُ معقودةٌ منذ البداية، والعمليةُ الإبداعيةُ مدروسةٌ هنـا، و يُخطـطُ لهـا ضـمن القـوانينِ الشِّـعرية الدارجـةِ في تلـك الأيام، ولم تُـترك الـذاتُ

40 ابن الخطيب، ديوانه،1/ 195

الشاعرةُ لتنداحَ كما تشاء، لأنَّ التَّجربةَ غير موجودةٍ أساسًا، والموضوعُ هو تصنيعٌ شعريٌّ لذيذ؛ استطاع الشاعرُ من خلاله أن يصنعَ صوراً شعريةً مبهجة، فهذه القَصْديَّة في الإنشاء نلمحُها في القوانين التي تحكمُ القصيدةَ. والأسلوبُ الأوضحُ هو أسلوبُ التَّضاد، لننظرْ في هذه التقابلات التي تكررت في الأبيات التي أثبتناها في النص.

شمسي / الظلام

أمرضت / علاجي

نسك / سطوة

بعاد / دانٍ

استقام / اعوجاج

إن التَّضاد هنا سبب في بداية المعنى ونموّه، وهو الذي يشكل العلاقات التي تبني الجو العام للنص. لقد تحول التَّضاد إلى قانون عامٍ في النص، فالفكرةُ تتحرك بين مستويين متناقضين. هذه الحركةُ توحي للمتلقي بأن ثمة قانوناً إيقاعياً عاماً يتحكَّم بالنَّص، وذلك لتواتر ظهورِ التَّضاد، فصار أفقُ التوقع مرهوناً بالتَّضاد الذي سيأتي، بحيث أصبح ذلك الانتقالُ الدوريُّ من الضِّد إلى الضِّد ضابطاً إيقاعياً مهماً؛ فبناءُ الخطاب الشعري على هذا التَّوتر والتعاقب بين الأضدادِ يدفعُ المتلقي إلى ملاحقةِ ذلك التَّوتر الدلالي والإيقاعي بحثاً عن انفراج له، وهنا تكمن مسافةُ التَّوتر التي تحقق الشعرية.[41] ولأن «للتضادِ قيمةً داخل السياقِ النَّصي حيث تشكلُ بنيةُ التَّضاد خَلْخَلةً في بنية اللغة التي تصبحُ قائمةً على المخالفة

41 الحميسي، شرفي، استراتيجية التَّضاد وعلاقتها بالنزعة الصوفية في شعر عبد الله العشي، مجلة المخبر، جامعة محمد خيضر، بسكرة الجزائر، عدد 7، 2011، ص276

والمصادمة، ولكنَّ هذه الخَلْخَلَةَ كفيلةٌ بإيقاظ القارئ واستنفاره كما أنَّها تقودُ إلى اليقظة لمواجهة مثل هذه الظاهرةِ الأسلوبيةِ بشكل يحققُ فيها اتصالاً مع النَّص المدروس» [42].

4_ التصوف

بدا لنا من خلال الصفحات السابقة أن ابن الخطيب كان رجلَ سلطةٍ ودنيا، ولم يكن مشغولاً بالزهد، وهذا لا يعني أنَّ الرجل كان عابثًا متهتكًا، بل كان يأنف من سلوك التَّهتك، وقد اعتذر غير مرة عن قصائد كُلِّف بكتابتها، وأظهرَ أسَفًا وبراءةً منها.

لكنْ هذا لا يعني أنَّ الرجلَ صار صوفيًا في الحقبة الثانية من حياته، ونقصدُ هنا حقبةَ أفولِ نجمه، وما الشِّعرُ الذي ينعى فيه الدنيا ويصفها بالخسران إلا سلوكٌ زهديٌّ طبيعيٌّ جدًا وجدناه عند كثير من الشُّعراء الذين تقدمت بهم السِّنُّ وأدركوا أنَّ الركض وراء الدنيا والثقة بها ما هو إلا كسراب بقِيعةٍ يحسبُه الظمآنُ ماء.

عاش ابن الخطيب في غرناطة قبل الانقلابِ الأول أعزَّ أيامه، ثم كانت المحنةُ الأولى، ولكنَّ السلطانَ ما لبث أن استعاد ملكَه، وعاد إلى الأندلس وأجبره على الرجوع معه، وفي الأندلس وجدَ لسانُ الدين نفسَه غريباً على الرغم من انغماسه في أبهة السُّلطان؛ فقد بدأ يلوحُ عليه شيء من الكآبة؛ وشيء من النزوع إلى الزهد؛ ويبدو أن شعوره بالتصوف قد بدأت تظهر معالمه الأولى أثناء مقامه بـ (سلا)، وقد بدأ هذا الشعور يتعاظمُ تحت وطأة التَّمزق النفسي بين ما هو مضطر إليه من زيف السلطة، وما هو راغب فيه من خلوة الروح، إن المدقق في حياة ابن الخطيب لا يمكنه الركون إلى هذا الرأي [43] ، فالرجل لم يكن متصوفاً فضلاً عن أن يكون متصوفًا فلسفيًا، كما حاول ابنُ زمرك أن ينعتَه بذلك كذبًا عليه

---

[42] انظر: ربابعة، موسى، جماليات الأسلوب والتلقي، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، إربد الأردن، ط1، 2000م، 150

[43] انظر: قصبجي، عصام، لسان الدين بن الخطيب، منشورات جامعة حلب، سورية، ط1، 1995،ص: 9-10-12-11

وافتراء، إنَّما كان كاتبًا موسوعيًا، كما تشهد بذلك مصنفاتُه الكثيرة، وقد كتب كتابَه " روضةُ التعريف بالحب الشريف " لشيوع التَّصوف في زمنه بالأندلس وبالمغرب، ولو كان متصوفًا حقًا لهجر الدنيا وعاش في زاوية، أو ضربَ في الأرض ناسكاً مثل ابن عربي وابن سبعين، ولا يمكن أن نخليه من ميول إلى الزُّهد والتَّصوف كما تدل أشعارُه، لكنْ هذا شيء والتَّصوف شيءٌ آخر[44]، وقد أقر الرجل أنه ليس صاحبَ تجربةٍ في التصوف، وأنَّه لا يملكُ أكثرَ من التَّعلق بمنهج أهله «وعسى الذي أنطق شوقًا أن ينطق ذوقًا، والذي حرك سفلاً أن يحرك فوقاً»[45].

نلمح أصداءَ الروح تتردُ في كلِّ بيت من القطعة السابقة، وربما كان ذلك لأنَّ الغزل هو أقربُ فنون الشعر إلى التَّصوف إذا سلمنا أنَّ الحب هو القاسمُ المشترك بين الغزل البشري والحب الإلهي، ولكنَّ النزعةَ الصوفية في غزله ليست ارتقاء بذلك الغزل إلى عالم الروح عن طريق الرمز، وليست كذلك غزلاً روحيًا دائمًا، إنَّما هي صورةٌ من صور الميل الديني، الذي ماز حياة لسانِ الدين. ذلك لأنَّه ينبجس من وجدانه الصوفي ذاته، ولا ريبَ أنَّ الخيالَ النَّسوي هو أحد تلك الصور وأقربها إلى قلب الإنسان. ولكنَّ مسألةَ تصوفِ ابن الخطيب أخذت بعدًا سياسيًا حيث اتُّهم الرجلُ بالزندقة، ثم فُتك به.

يمكننا القول: إنَّ النزوعَ الديني أو الأثرَ الصوفي في شعره، قد يكون من قبيل المعادلِ الموضوعي لحالة الصراع النفسي؛ هذا الصراع الذي طحنت رحاه دواخلَه، ذلك الصراعُ بين العودة ونقيضها، ولاسيما أنَّه عاينَ مآلاتِ الأشياء، ورأى بأمِّ عينه اندثارَ الدنيا التي أقبلت في يوم من الأيام، وإن يكن قد أُجبر على العودة جسداً، بعد فشل الانقلاب الأولِ وعودته مع السلطان إلى غرناطة، ولكنَّه ظلَّ متعلقاً بتلك الخلوة والنزوع روحاً، وهذا الأمرُ قد انعكسَ على شعره.

---

44 ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي؛ عصر الدول والإمارات في الأندلس، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1989،ص : 419

45 ابن الخطيب، لسان الدين، روضة التعريف بالحب الشريف، تحقيق: محمد الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب،ط1، 1970، 1 | 99

يقول ابن الخطيب[46]:

هبَّ النَّســـــــيمُ مُعطَّرَ الأراجِ فشَفى لواعجَ قلبيَ المهتـــاجِ

وافى يحـــدثُ عن أحبَّـــتي الأُلى أصبحتُ أكْني عَنْهمُ وأُحاجي

فاشْرَبْ على ذكرِ الحبيبِ وسقِّني صهباءَ تُشْرقُ في الظَّلامِ الداجي

من خمرةِ السِّر المقدســـــةِ التي كَلفتْ بطاســـتِها يدُ الحلاَّجِ

وأرَتْ لهُ الأشياءَ شـــــيئاً واحداً فغدا يخاطبُ نفسَـــــهُ ويُناجي

فغدا ومن صوفِ الصَّفاءِ شـعارُهُ واعتاضَهُ من لبْســـــــةِ الديباجِ

رفعوا لها قبســـــاً بجانبِ طورِهم فعشُوت نحوَ ســـــراجِهِ الوهَّاجِ

مهما ضَحيتُ فظلُّ حبّكَ مَلجئي ومتى مَرِضْتُ ففي يديكَ عِلاجي

نقوم بداية بفرز الثنائيات الضدية التي وردت في هذه الأبيات:

يحدثُ/ أكني / أحاجي

تشرق / الظلام

يخاطب / يناجي

صوف / الديباج

مرضت / علاجي .

46 ابن الخطيب، ديوانه، 1/ 199

انطلق بلسان صوفي مبين ليعبر عمَّا يُسِّر السلطان، فقال هذه الأبيات معيداً استنساخَ اللَّحظات الصوفية عبرَ معجمها، الذي استقر في عصر لسان الدين، واكتملت دلالاتُهُ المعرفية، هذه الدلالات التي مازالت مثارَ جدلٍ بين النُّقاد حولَ مركزِ التَّأويل الأساسي في المعرفة الصوفية.

إذاً السُّلطانُ يميل إلى الصوفية، والشَّاعر يتبعُ سلطانَه موقفاً وفناً، وفي هذا النَّص نجد أنفسَنا أمامَ لحظةٍ صوفية لغوية؛ حيث أعاد الشَّاعر فيها المقولات الصوفية، ولأنّ الفكرَ الصُّوفي أساساً مبني على جدلية الحضور والغياب، فلا بُدَّ أنْ ينطلقَ من فكرة التَّضاد؛ لذلك نجدُ من الوجاهة الوقوفُ أمام هذا النّصِّ لنرى كيف كان للتضاد أثرٌ في صناعة الشعرية في نصٍّ لم يقلْه الشَّاعر بناءً على فكرٍ أصيلٍ في ذاته أو معاناةٍ عاشها.

بيَّن لنا التَّضادُ منذ البداية أننا أمامَ معشوقٍ إلهي، ولسنا أمامَ إنسِّية شغفَها الشَّاعرُ حبًا، فهو يحدِّثُ عن الحب وهذا من الطبقة السطحية للكلام، ولكنَّه يغور باتجاه البنيةِ العميقة حيث الكناية، لأنَّ هذا الحبيبَ لا تدركه هذه اللغة، والمجيء بكلمة أكني وأحاجي مقابل كلمةِ أحدِّثُ كان بدايةَ تأويلِ النَّص، الذي نما شيئاً فشيئاً ليدركَ المرءُ أنَّه أمامَ معشوقٍ من نوع خاص، ثم يأتي بثنائيةِ النُّور والظَّلام، هذه الثنائيةُ التي تعتبر مرتكزاً من مرتكزات الفكر الصوفي، حتى يعودَ مرةً أخرى إلى البنية السطحية، عندما ذكرَ الصُّوف وجاء بالديباج ليقارنَ بين شكلين للحياة، شكل الصوفي الزاهد، الذي غادر ملذاتِ الدنيا، وترك الديباجَ ليكونَ رداءه الصوف، ولتكون العودةُ من عمق الحالة الصُّوفية سريعةً، لأنَّ العلاجَ من المرض في يد هذا الحبيب الطبيب، وقد رصفَ الشَّاعرُ هذا النَّص بما يلزمُ من الحالة الصُّوفية، فقد جعلَها تطفو على سطح سَحَرانٍ شفيف، فللنسيم هبوبٌ مؤرج بالطيب، ويحملُ حديثَ الأحبة، الذين شغلوا القلبَ، وهذا الاستذكارُ مصحوبٌ بالخمرة النورانية التي تملأ المكانَ بذكر الحلاَّج، ويعشو إلى نارها كلُّ وامق.

لا يمكن لك أن تستدعيَ الحالةَ الفكرية دون أن تستدعيَ معها قوانينَها العميقةَ التي تشكِّلها، وبما أنَّ الإيقاعَ هو الظِّلُّ الشَّفيفُ الذي لا يظهر، وهو الذي يساعدُ في بناء منطقِ الفكرةِ، ويعزِّزُ دلالتها فإنّ الشَّاعر يستدعي معها هذه القوانينَ لذلك رأينا أن التَّضادَ في هذه الأبيات عنصرٌ بارزٌ يدركُه المتلقي

منذ لحظاتِ مباشرةِ النَّص الأولى، وهذه التَّضادات من ضمن الفكرِ الصُّوفي العميق، أو مَا يتأسسُ عليه الفكرُ الصُّوفي، لذلك كانت جدليةُ النُّورِ والظَّلام بكلِّ ما يحملُ النُّور من حركة، وبكلِّ ما يحملُ الظَّلام من سكون، لتتشكَّل بينهما فجوةٌ تنقلُ المرءَ من إيقاعٍ نفسيٍّ إلى آخر، وهذا ما نراهُ بين يحدث ويكني، بين إيقاعِ الحديث، وبين سكونِ الصمت، وبين المرضِ الدَّال على السُّكون والفناءِ، وبين علاجي الذي يدلُّ على الحركة وعودةِ الحياةِ بكلِّ ما تحمله من حركيَّة، وفي كل ذلك يدركُ المرءُ أنَّه أمامَ خطٍّ واحدٍ هو إعادةُ الضِّد، الذي يسهم مباشرة في صناعة الصُّورة، وافتعال الشِّعرية، لأنَّ الشَّاعر لا يصدرُ هنا عن حركةٍ داخليّة تخصُّ روحَه، وإنَّما يستدعي النموذجَ وينقلُه بكلِّ قوانيه العميقةِ التي تشكِّلُه، فاستطاع التَّضادُ أن يكسبَ اللغةَ إيقاعاً خاصاً، عبر هذا الغموضِ، الذي تشكَّل في طبقات المعنى العميقة، معتمدًا في ذلك إيقاع البحرِ الصاخب، ولولا ذلك لما استطعنا أن ندركَ هذا الجرسَ العميق للكلمات.

النتائج والخاتمة

درسنا في هذا البحث أسلوب التضاد عند الشاعر الأندلسي لسان الدين بن الخطيب ، هذا الشاعر الذي نال حظوة في حياته واهتماماً كبيراً من المؤرخين والنقاد بعد موته، وحاولت استكشاف الأدبية التي ساهم التضاد في صنعها، وخلص البحث إلى النتائج الآتية:

إن التنافرَ أو التَّضادَ في قصائد ابن الخطيب وسيلةٌ للوصول إلى عمق صورةِ الواقعِ؛ التي يشاركُ الإبداعُ في اكتشافها، ويشاركُ في رسم النقيضِ لها في آنٍ معاً، ومن ثم فإنَّ العزفَ على إيقاع التَّضاد يمنحُ النصَّ طاقةً جماليةً على صعيد البنية الشعريَّة بكل مفرداتها، بل بكل مكوناتها؛ لأنَّ المتحولات اللفظية الضديَّة تخلقُ دلالةً جديدةً لها إيقاعُها النفسي العميق، وهذا ما ينعكسُ على حركيّة النص وتساوقه الموسيقي مما يضمن لها الإثارةَ للمتلقي، ولاسيما عندما يرتبط المتحول الصوتي بالمتحول الدلالي أو المتحول النفسي الذي يتبع حركةَ الصوت ومسارَه النغمي، ولم يكن ابن الخطيب ذا تجربة غزلية ؛ لذلك فإن مواضيع الغزل التي وقفنا عليها في ديوانه ما هي إلا تصنيعٌ شعريٌّ لذيذ؛ استطاع الشاعرُ من خلاله أن يصنعَ صوراً شعريةً مبهجة، وأضحى التقابل بين الأضداد في نصوصه التأمليَّة هو مرتكزُ شعريته، لأنَّه يجعلُ المتلقي يقع تحتَ سطوةِ المقارنةِ بين الزمنَين، واستحقاق كلِّ زمن، فيُجري المتأملُ مقارنةً ببطء؛ لأنَّها

تستوجب التأمل، لذلك فرضت إيقاعاً بطيئاً، فالمتلقي يجب أن يمشِّط ذاكرتَه فيما اقترف في الزمن الفيزيائي المعلوم بالنسبة له، زمن العيش، لينتقلَ إلى التأمل في زمنٍ قادمٍ لا يدركُ ماهيته، ولكنَّه يؤمنُ به على الرغم من جهله بتفاصيله؛ لأنَّه لم يعاينه، وهذا الإلحاح على فكرتي الفناء والبقاء في الأبيات جعل التَّضاد يتحولُ إلى قيمةٍ أسلوبيةٍ.

المصادر والمراجع

- أحمد، سامي شهاب ، *النقد الأدبي الحديث؛ قضايا واتجاهات*، دار غيداء للنشر، عمّان، د.ط(2012).
- بالنثيا، آنخل جنثالث ، *تاريخ الفكر الأندلسي*، ترجمة حسين مؤنس، المركز القومي، القاهرة، مصر(2011).
- التلمساني، المقَّري ، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب*، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، لبنان(1988).
- الجاحظ، عمرو بن بحر، *الحيوان*، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي،، القاهرة(د.ت).
- الجرجاني، الشريف علي بن محمد (د.ت)، *التعريفات*، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة.
- الجرجاني، عبد القاهر، *أسرار االبلاغة*، تحقيق: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت(1988).
- ابن الخطيب، لسان الدين ، *الإحاطة في أخبار غرناطة*، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر(1973).
- ابن الخطيب، لسان الدين ، *اللمحة البدرية في الدولة النصرية*، صححه ووضع فهارسه: محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة(1928).
- ابن الخطيب، لسان الدين، *ديوانه* ، تحقيق: محمد مفتاح، دار الثقافة، المغرب(1989).
- ابن الخطيب، لسان الدين، *ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب*، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، القاهرة مصر(1981).
- ابن الخطيب، لسان الدين، *روضة التعريف بالحب الشريف*، تحقيق : محمد الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب(1970).

- ابن خلدون، عبد الرحمن ، *المقدمة*، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت(1999).
- لخميسي، شرفي ، *استراتيجية التَّضاد وعلاقتها بالنزعة الصوفية في شعر عبد الله العشي*، مجلة المخبر، جامعة محمد خيضر، بسكرة الجزائر، العدد السابع(2011).
- داود، محمد ، *العربية وعلم اللغة الحديث*، دار غريب، القاهرة، مصر(2001).
- أبو ديب، كمال ، *جدلية الخفاء والتجلي دراسة بنيوية في الشعر*، دار العلم للملايين، بيروت(1981).
- راغب، نبيل ، *علم النقد السياسي*، المكتبة الأكاديمية، القاهرة(2014).
- ربابعة، موسى ، *جماليات الأسلوب والتلقي*، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، إربد الأردن(2000).
- الزباخ، مصطفى ، *بنية الصراع الحضاري الأندلسي من خلال رسائل ابن الخطيب، قراءة في المكونات والدلالات*، مجلة كلية الآداب بتطوان، جامعة سيدي محمد بن عبدالله، عدد خاص بندوة ابن الخطيب، السنة الثانية، عدد2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء(1987).
- الزين، محمد شوقي، *الثِّقاف في الأزمنة العجاف* ؛فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب، منشورات الاختلاف، الجزائر(2013).
- سلطان، منير، *البديع تأصيل وتجديد*، منشأة المعارف، الإسكندرية(1986).
- السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين ، *المزهر في علوم اللغة*، تحقيق: محمد أحمد جاد الله المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي(1958).
- ضيف، شوقي؛ *تاريخ الأدب العرب عصر الدول والإمارات الأندلس*، دار المعارف، مصر(1989).
- عبد المطلب، محمد، *البلاغة العربية قراءة أخرى*، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة(1997).

- عنان، محمد عبد الله ، *نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتصرين*، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر،(1997).
- فضل، صلاح، *علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته*، كتاب النادي الأدبي، جدّة، السعودية(1988).
- قصبجي، عصام، *لسان الدين بن الخطيب*، منشورات جامعة حلب، سورية(1995).
- كوزنتيسوف؛ *لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية*، ترجمة إلياس شاهين، دار الفارابي، بيروت، لبنان (2016).
- كوهين، جان، *اللغة العليا*، ترجمة أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، بيروت(1995).
- مطلوب، أحمد ، *معجم المصطلحات البلاغية وتطورها*، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد(1987).
- الملاح، هاشم يحي، *المفصل في تاريخ الفلسفة؛ دراسة تحليلية في فلسفة التاريخ التأملية والنقدية*، دار الكتب العلمية، بيروت (2007).
- مؤنس، حسين، *أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، لمؤلف مجهول*، الزهراء للإعلام، القاهرة، مصر(1991).
- وات، مونتغمري، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، *مع فصل في الأدب بقلم بيير كايا*، ترجمة : محمد رضا المصري، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت (1998).
- الوراكلي، حسن، *لسان الدين بن الخطيب في آثار الدارسين (دراسة وبيبليوجرافيا)*، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع.2، (1987).

KAYNAKÇA

Abdul-Muttalib, Muhammed. *el-Belagatü'l-Arabiyye*, eş-Şirketü'l-Mısrıyyeti'l-Alemiyye Neşir, Lonjman, Kahire (1997)

Ahmed, Sami, *Şihab. En-Nakdü'l-Edebi'l-Hadis*; Kazaya ve İtticâhât, Neşir Daru Gayda, Amman, d.t. (2012)

Cahız, Amr b. Bahr. *El-Hayvan*, Tahkik: Abdu's-Selam Harun, Matbaatu Mustafa El-Babi'l-Halebi, Kahire (d.t).

Cohen, Jean. *el-Lugatü'l-Ulya*, Tercüme Ahmed Derviş, Medeniyetin Yüksek Meclisi, El-Meşru El-Kavmi Tercüme, Beyrut (1995)

Cürcani, Abdu'l-Kahir. *Esraru'l-Belağa*, Tahkik: Muhammed Reşit Rıza, Daru'l-Kütübi'l-İlmiyye, Beyrut, (1988)

Cürcani, Abdu'l-Kahir. Eş-Şerif Ali b. Muhammed (d.t), *et-Tarifat*, Tahkik: Muhammed Sıddık El-Minşavi, Daru'l-Fazilet, Kahire

Davud, Muhammed. *el-Arabiyyetü ve İlmü'l-Lugati'l-Hadis*, Darı Garib, Kahire, Mısır (2001)

Ebu Dib, Kemal. *Cedliyyetü'l-Hafa Ve't-Tecelli Dirasetü Benyeviyye Fi'ş-Şiir*, Daru'l-İlm Malayin, Beyrut (1981)

el-Mallah, Haşim Yahya. *el-Mufassal Fi Tarihi'l-Felsefe; Dirasetü Tahyiliyye Fi Felsefeti't-Tarihi't-Te'miliyye ve'n-Nakdiyye*, Daru Kütübi'l-İlmiye, Beyrut (2007)

el-Varaklı, Hasan. *Lisanü'd-Din b. El-Hatib Fi Asarı'd-Darisin* ,(Bibliyografya İncelemesi) Külliyetü'l-Adab Dergisi, Beyrut A.2, (1987)

es-Suyuti, Abdu'r-Rahman Celaleddin. *Elmüzhir Fi Ulumi'l-Lugat*, Tahkik: Muhammed Ahmed Cadullah Mevla, Muhammed Ebu'l-Fazl İbrahim ve Ali Muhammed El-Becavi (1958)

ez-Zebah, Mustafa. "Beniyyetü's-Sarâü'l-Hazari'l-Endülüsi Min Hılali Resâil b. El-Hatib", *Kıraat Fi'l-Mükevvenat ve'd-Delalat*, *Adabı Külli Dergisi*, Tetuan, Muhammed b. Abdullah Efendi Üniversitesi,

Özel baskı, İbn Hatib Paneli, İkinci Yıl, adet 2, Necahi Cedit Matbaası, Kazablanka (1987)

ez-Zeyn, Muhammed Şevki. *Es-Sikaf Fi'l-Ezmineti'l-İcâf*; *Batıda ve Arabistanda Medeniyet Felsefesi*, İhtilaf Neşriyat, Cezayir (2013)

Fazl, Salah. *İlmü'l-Uslub Mebadiühü ve İcraatühü*, Kitabü'l-Nadi'l-Edebi Cidde Suudi Arabistan (1988)

İbni Haldun, Abdu'r-Rahman, *el-Mukaddime*, Tahkik: Derviş el-Cüveydi, Asri Kütüphanesi, Beyrut (1999)

İbnü'l-Hatib, Lisanü'd-Din. *Divane,* Tahkik: Muhammed Miftah, Daru's-Sakafe, Fas (1989)

İbnü'l-Hatib, Lisanü'd-Din. *el-İhata fi Ahbari Gırnata*, Tahkik: Muhammed Abdullah İnan, Hancı Kütüphanesi, Kahire, Mısır (1973)

İbnü'l-Hatib, Lisanü'd-Din. *el-Lemhatü'l-Bedriyye Fi'd-Devleti'n-Nasriyye*, Tashih eden ve Fihrist koyan: Muhibbü'd-Din El-Hatib, Selefiyye Matbaası, Kahire 1928

İbnü'l-Hatib, Lisanü'd-Din. *Ravzatü't-Tarif Bi'l-Hubbi'ş-Şerif*, Tahkik: Muhammed El-Kattani, Daru's-Sakafe, Kazablanka, Fas (1970)

İbnü'l-Hatib, Lisanü'd-Din. *Rayhanetü'l-Kütüb ve Nec'atü'l-Müntab*, Tahkik: Muhammed Abdullah İnan, Hancı Kütüphanesi, Basım Yayım ve Tevzi, Kahire, Mısır (1981)

İnan, Muhammed Abdullah. *Nihayetü'l-Endülüs ve Tarihü'l-Arabi'l-Muntasırın*, Hancı Kütüphanesi, Kahire, Mısır (1997)

Kasabci, İsam. *Lisanü'd-Din b. el-Hatib*, Haleb Üniversitesi Yayınları, Suriye (1995)

Kırkız, Mustafa. *Arap Belagati İlminin Tarihi ve Gelişim Aşamaları*, Beyan Yay, 34 (2014)

Kuznetsov, Luwig. *Feurbach ve Almanya Klasik Felsefesinin Sonu*, Tercüme İlyas Şahin, Daru Farabi, Beyrut, Lübnan (2016)

Lhamisi, Şerefi. *Tezat Stratejisi ve Alakâtüha Bi'n-Nez'ati's-Sofiyye Fi Şiiri Abdillahi'l-Uşi*, Mecelletü'l-Muhbir, Camiatü Muhammed Haydar, Biskra, Cezayir, Yedinci baskı (2011)

Matlup, Ahmed. *Mu'cemü'l-Mustalihati'l-Belaga ve Tetavvuriha*, Irak İlmi Memua Matbaaları, Bağdat (2007)

Müennes, Hüseyin. *Ahbaru'l-Asr Fi'nkızâi Devleti Beni Nasr*, Müellifi Bilinmiyor, Ez-Zehra Li'l-İ'lam, Kahire, Mısır (1991)

Rababaa, Musa. *Cemaliyyatü'l-Uslub ve't-Telakki*, Müessesetü Hammade, Üniversite dersleri için, İrbed, Ürdün (2000)

Ragıb, Nebil. *İlmü'n-Nakdi's-Siyasi*, Akademi Kütüphanesi, Kahire (2014)

Sultan, Münir. *el-Bedi' Te'sıl ve Tecdit*, Maarif Neşri, İskenderiye, Mısır (1986)

Tilmisani, El-Makkari. *Nefhu't-Tıb Min Ğasni'l-Endülüsü'r-Ratiyb*, Onu Veziri Lisanü'd-Din b. Hatib zikretti, Tahkik: İhsan Abbas, Daru Sadır, Lübnan 1988

Valencia, Angel Gonzalez. *Tarihu'l-Fikri'l-Endülüsi*, Tecüme Hüseyin Müennes, Ulusal Merkez, Kahire, Mısır (2011)

Watt Montgomery. *Fi Tarihi İspanya İslamiyye Mea Faslı Fi'l-Edeb*, Perr kaya, Tercüme: Muhammed Rıza El-Mısri, Neşir ve Yayın Matbuat Şirketi, Beyrut (1998)

Zayf, Şevki. *Tarihu'l-Edebi'l-Arab Fi Asri'd-Düvel ve'l-İmarati'l-Endülüs*, Daru'l-Maarif, Mısır (1989)